

تفسير البحر المحيط

@ 36 @ حكمة لأن حاصلها يرجع إلى الأمر بالتوحيد وأنواع الطاعات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، والعقول تدل على صحتها وهي شرائع في جميع الأديان لا تقبل النسخ . . . وعن ابن عباس : إن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه السلام ، أولها { لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } قال تعالى : { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ } وكرر تعالى النهي عن الشرك ، ففي النهي الأول . { فَتَقْوَعُدْ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا } وفي الثاني { فَتُلَاقَى فِي جَهَنَّمَ مَلَأُومًا مَّذْذُورًا } والفرق بين مذموم وملوم أن كونه مذمومًا أن يذكر أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح منكر ، وكونه ملومًا أن يقال له بعد الفعل ودمه لم فعلت كذا وما حملك عليه وما استفذت منه إلا إلحاق الضرر بنفسك ، فأول الأمر الذم وآخره اللوم ، والفرق بين مخذول ومدحور أن المخذول هو المتروك إعانته ونصره والمفوض إلى نفسه ، والمدحور المطرود المبعد على سبيل الإهانة له والاستخفاف به ، فأول الأمر الخذلان وآخره الطرد مهانًا . وكان وصف الذم والخذلان يكون في الدنيا ووصف اللوم والدحور يكون في الآخرة ، ولذلك جاء { فَتُلَاقَى فِي جَهَنَّمَ } والخطاب بالنهي في هذه الآيات للسامع غير الرسول . وقال الزمخشري : ولقد جعل عز وعلا فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذل فيها الحكماء وحك بيا فوخه السماء ، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم . . . { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا } . . . { إِنَّا نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ فَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا } * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا * قُلْ لِّوَلَدِكَ مَعَهُ الْهَيْهَاتَ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَ اللَّهِ * وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوهًا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ * السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ * وَمَنْ فِيهِنَّ * وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ * وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ * إِنَّ نَسْهَهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } . . .

لما نبه تعالى على فساد من أثبت شركاء ونظيرًا أتبعه بفساد طريقة من أثبت ولدًا ، والاستفهام معناه الإنكار والتوبيخ والخطاب لمن اعتقد أن الملائكة بنات الله ومعنى { أَفَأَصْفَاكُمْ } آثركم وخصكم وهذا كما قال : { إِلَهِ * الْبَنَاتُ } وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْإُنْثَى } وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم

وعادتكم ، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ويكون أردؤها وأدونها
للسادات . ومعنى { عَظِيمًا } مبالغاً في المنكر والقبح حيث أضفتم إليه الأولاد ثم حيث
فضلتم عليه تعالى أنفسكم فجعلتم له ما تكرهون ، ثم نسبة الملائكة الذين هم من شريف ما
خلق إلى الأنوثة . ومعنى { صَرَفُونا } نوعنا من جهة إلى جهة ومن مثال إلى مثال ،
والتصريف لغة صرف الشيء من جهة إلى جهة ثم صار كناية عن التبیین . وقرأ الجمهور {
وَصَرَفُونا } بتشديد الراء . فقال : لم نجعله نوعاً واحداً بل وعداً ووعداً ،
ومحكماً ومتشابهاً ، وأمرأً ونهياً ، وناسخاً ومنسوخاً ، وأخباراً وأمثالاً مثل تصريف
الرياح من صباودبور وجنوب وشمال ، ومفعول { صَرَفُونا }